

العلاقات الدينية بين الأمم لتحقيق تعاون عالمي

بقلم الدكتور منصور فهمي بك

المدير العام لدار الكتب المصرية

لست أعلم من نفسى أنى ممن تفقهوا فى أصول الديانات وتوارىخها ، ولست ممن نالوا فى ذلك إجازات وشهادات . على أنى وإن كنت من غير المتخصصين فى دراسة الديانات ونظرياتنا فهانذا أشهد آثارها الواضحة فى أوضاع الجماعات وأعمال الناس . وكأن الديانات ليست نظريات فلسفية وعقائد أو أعمالاً يختص بها فريق دون آخري فحسب ، بل هى وجود اجتماعى ظاهر يتباين من أقدار مشتركة من العلم والعمل والعقائد يشيع بين الناس جميعاً وعلى هذا فباح لأمثالنا ممن يؤمنون بأثر الدين ويعتقونه أن يدلوا فيه بأرائهم .

وقبل الدخول فى صميم الموضوع أشير إلى ما اتجه من الخطط فى معالجته . فهنا أئنى تجنبنا الاستقصاء على نحو ما تنزع إليه الفلاسفة فى طلب الأصول الأولى أو الغايات البعيدة وتوخيت أن أعتمد على المشهود الواقع من الآثار القريبة للديانات ، فلم أبدأ مثلاً إلى النظر فى مختلف المظاهر الدينية فى الشعوب البائدة أو البدائية ، بل تلمست الدين ومظاهره فى نفوس المعاصرين المتبادلى النشاط والمسعى .

كما أنى لم أعمق فى البحث على نحو ما يريده الاجتماعيون والفلاسفة ، فيتساءلون أكانت النزعات الدينية أسبق من النزعات الخلقية ، أم أن هذه الأخيرة كانت أسبق من الأولى . وحسبى فى هذا الشأن أن أعتمد على أن هناك صلة تقوم بين الأخلاق الجارية والديانات المعروفة ، وأنها جميعاً تتعاون فى طائفة من التوجهات .

وعلى الجملة فحسبنا فيما نحن بصدد من البحث أن ننظر إلى الدين من نواحيه الاجتماعية الجارية العملية ، لا من نواحيه الفلسفية أو اللاهوتية .

وكذلك نفترض بعد أن تبيننا لنا طريقة البحث التى نسير عليها أن كلامنا يسلم ببعض أصول تعين على ما يقصد إليه من تحقيق تعاون عالمي على أساس العلاقات الدينية .
فقرر:

١ - أن الإنسان كما هو مدنى بطبعه ، هو كذلك دينى بطبعه ، بمعنى أنه يتزع إلى الإيمان بقوة لاحتها لما تحيط بكل ما يقع عليه تصوّره من وجود محدود ، وأن صلة الإنسان بما لا حد له تولد فى خافية وجدانه شعوراً بالعبودية يتبسط عند المناسبات . وفى بقضته يعتمتع

الناس على أسلوب من الخضوع والرجاء يزيدهم يقينا بضعفهم وحاجتهم إلى عون القوة العظمى التي لا تتركها العقول والأوهام . ولعل في هذا الشعور المشترك بين الناس جميعا أول ينبوع نفسى لمجارى الديانات واختلاف ألوانها . كما أنه من الملم به أيضا أنه ما وجدت جماعة من البشر ترابطت في نظام إلا آمنت إيماننا بأسلوب في حياتها جعلت منه دينا وعتيدة .

٢ - ثم نقرر مبدأ ثانيا وهو أن سير التيارات الدينية الكبرى كان في حركات التنقل من الدوائر الضيقة المحدودة إلى الدوائر الواسعة الشاملة ، بمعنى أن طائفة من العقائد كانت في بدايتها محصورة في قائل وأمم معينة ، ومع تتابع الأجيال وتطور الفكرة الدينية اتجهت هذه العقائد للجمع بين مختلف الشعوب ، والسيطرة في البقاع المتباينة ، حتى يبدو أن أكثرية من سكان الأرض يدينون لإله واحد هو رب العالمين ، وأن التزوع الدينى يتحول إلى تزوع علمى واسع .

٣ - أما المبدأ الثالث فهو أن العقل البشرى سيظل يحكم طبيعته وحدوده قاصرا عن إدراك بعض المسائل وفهمها ، كالأصول الأولى أو الغايات النهائية لظواهر هذا الوجود وفق سنة لا تتبدل ولا تتغير . وقد يدعو ما هو مشاهد من انسياق الظواهر في سنتها إلى التساؤل عن كنه هذا الانسياق وخصائصه ، ولماذا كانت هذه الخصائص لبعض ظواهر دون غيرها ، ولماذا كان سعى الانسان ونشاطه يتصلان دائما بأهداف ومثل يقدر المرء أن الخيرى بلوغها . وليس في نظام العلم ومألوفه أن يحكم على خيرية هذه الأهداف أو شريرتها حكما مطلقا ، بل إن تقدير ذلك راجع لمنطق العواطف والوجدانات العميقة ، وروح الحياة العملية السائرة التي يطاع وحيها في كل شيء ، حتى في التضحية بالنفس لمصلحة عليا غير مصلحة الأفراد ، فإن المرء يحس بالحاجة لأن يستمد لشعوره وحياته العملية من توجيهات أخرى غير توجيهات الواقع العلمى ووجهه ، وتلك هي توجيهات العقائد والأديان والإيمان .

٤ - ثم نقرر بعد ذلك مبدأ رابعا ، وهو أن جمهرة واسعة من الناس في هذا العصر الذى نطلق عليه عصر التقدم ، وهو عصر غنى بأنواع من الخيرات والنعم المادية والمعنوية أقول : إن هذه الجمهرة ترى جديرا بمن يعيش في هذا العصر أن يسعى للانتفاع بما فى هذا الخير والجمال والاستمتاع بها جميعا ، وأن ما هو مثبت في الوجود منها يفرض بشعذ الهمم والعزائم لحسن استغلالها ولمرقلة عناصر الشر من مظاهر البؤس والألم والقيح والفقر التي طالما تعطل مباح الحياة .

وزيادة على ما تقدم نقرر أن الحياة الاجتماعية الراهنة ما زالت تمعن في أساليب التعقد والتشعب ، فتبعث على ازدياد الرغبات والحاجات ، وأصبحت وفرة المكتشفات الآلية والكيميائية والذنية تمد في ذلك مدا ، مما أدى من جهة إلى انتقاص أوضاع البساطة

وجمالها وخيرها ، ومن جهة أخرى الى الاعتزاز بهذه المكتشفات والأدوات التي أغرت بعضها بالزهو والعتو وهيات لبعض آخر الاستسلام والحقد الكين ، وكل ذلك يشيع الغلق والاضطراب في نفس الجماعات و بين مختلف الشعوب ، مما يلقى بقلق نفسي واضطراب لا يتفق مع أساليب الطمأنينة العامة المرجوة والتعاون للسلم .

و بعد أن قدمنا هذه المبادئ التي أقدر أنها موضع اتفاق بين الكثيرين يصح أن نلم للمامة سرية ببعض الأصول والأقدار المشتركة بين الأديان مما أحسبها دعائم ترجى لبناء صرح من التعاون العالمي في سبيل الخير والسلام .

فبدأ الترابط في المودة والتعاطف المشترك بين الناس على اختلاف أجناسهم ومشاربهم الدينية قد قرره الاسلام في جلاء ، وفرضه على متبعيه من غير ائس ولا إهام ، فجاء في كتاب الله في سورة المتحنة هذه الآية الكريمة : (لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتُلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُواكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) .

وفي هذه الآية حض واضح على مسالة المسالم ، وربط أواصر المودة معه في البر والخير . وفيها مقابلة العدوان بأوجه الدفاع إحمادا لنار العداوة حين تشتعل ، وردعا لامتنى من غواية الاعتداء . وإذا كانت المسالة يقويها الدين الإسلامي مهما يكن دين المسالم ومذهبه ، فأنتم إذن وأكرم بهذا المبدأ ليكون ركازا لتعاون عالمي بين المسلمين وغيرهم . ولم ينفرد الإسلام عن الديانات الكبرى بهذا المبدأ السامي ، فإن في النصرانية واليهودية من المبادئ ما يساير دين الإسلام في ذلك ويجاريه . فإذا كانت هذه الديانات تتآزر بعضها مع بعض في مبدأ أسامي كالذي قدمت ، فإن الفلاسفة والأخلاق تتعاون كذلك مع هذه الديانات في هذا المبدأ الإنساني الجليل .

ويلوح لي أن كل ما يطلب الآن هو تيسير جريان مثل هذا المبدأ المقبول في جميع الديانات الراقية وتعميمه بين الشعوب ، فيتعاضد الدينون على اختلاف ملاتهم في الوسائل الصالحة لنصرتة ولتحقيق أثره . وليس بنا الآن من حاجة إلى الإسهاب في عرض ما يتخذ من الوسائل . وسنشير إليها فيما بعد في فرصة آتية .

وفي الديانات كلها كذلك أصل مشترك آخر لا يقل جلالا عما تقدم ، يتمثل في فكرة السلام . فإنا نجد أن الإسلام أشار الى معانيها في نيف وستين موضعا من القرآن ، عدا ما ورد في الآثار الصحيحة ، فقد جعلت تحية المسلمين في صلواتهم وتوابعهم مقرونة بذكر

السلام ، واتخذ رب المسلمين لفظ السلام من أسمائه الحسنى ، وفي ذلك أوضح دلالة على ما لهذا المعنى من مكانه في دين الرسول العربى . وكما أن هذا مقرر عند المسلمين هو مقرر كذلك في الديانات الأخرى ، لا سيما المسيحية ، في وضوح وجلاء .

وكذلك عينت الديانات الكبرى برعاية الوحدة الأولى التى تتكون منها الجماعات والشعوب ، فكأنها تقدر ما لنظام الأسرة من شأن وخطر ، وما يتصل به من حرمة وقداسة . فقدرت الديانة اليهودية — وهى أولى الديانات السماوية المعروفة — مكانة لأسرة . فن أظهر الوصايا في هذا الدين تجليل الوالدين ، والاحسان إليهما ، وصون الأعراض ، والمحافظة على أساليب الطهر في الحياة الاجتماعية ، وتقدير البتة والإثارة منها لتتوية الجماعات ، وما إلى ذلك من أمور تتصل بمكارم الأخلاق الاجتماعية . وكل ما تقرره اليهودية في ذلك من الاتجاهات تؤيده النصرانية ويؤيده الإسلام .

المبادئ المادية :

ولو تفحصنا ما ترمى إليه المبادئ الشائعة في الديانات لوجدناها تلتقى عند مصلحة المجموع وتقديدها على مصلحة الفرد . فكأنها تتأزر في إعلاء كلمة الإيثار على كلمة الترة ، من ثم كأنها توجه الأفراد الى نواحي الخير الدائم الآجل على ما يخلب الأبصار من نواحي الخير البراق العاجل . وكأن السياسة العامة للأديان جميعا تتمثل في صورة العتيدة بالخير ، ونحويل هذه العقيدة الى إيمان يدفع أهله الى سعى منظم في هذه الحياة الدنيا وفق دستور روحى مقدس ، وإذا صح في الذهن أن تتمثل الديانات في هذه الصورة التى قدمت فإننا نتقرر أن لها عدواً المودداً في النزعات والمذاهب المادية على اختلاف أنواعها وصنوفها منذ أقدم العصور الى يومنا هذا .

والى لا استطيع في هذا المقام المحدود أن أعرض المذاهب المادية في اختلاف صورها ، وحسبى أن أشير إليها إشارة سريعة . فليست النزعات المادية التى تقصد الى ذكرها حتى ما يقصد اليه الفلاسفة وعلماء الطبيعة من تعليل الطواهر الكونية والحالات النفسية بأسباب تتدرج في هذ الكون المشهود ، وينشأ من توصلها وتقاطعها بعض ما يتمثل لمدار كنا وجواسنا ، كأن نعلل ظاهرة كونية بتألف في الكهارب والطاقات ، أو أن نعلل حالة من حالات النفس بنقص أو زيادة في إفرازات كيميائية ومادية في ضد الجسم وتفاعل عناصره . بل المقصود بالمادية هنا نزوع الأفراد والجماعات نزوعاً يعتمد على غرائز الأنانية والأثرة ، وينشط بهم الى إشباع الشهوات الوضيمة بوسائل الكفاح والغلبة ، على اعتبار أن ليس وراء هذا الوجود المحسوس المشتمى وجود آخر إلا الأوهام ، وأنه في سبيل الواقع المشاهد المستطاب يناصل الناس ما استطاعوا النضال ، وينازلون ما استطاعوا النزال ، ليظفر كل لنفسه بالمطلوب ، ويخرج من المععة المهلكة بما يحسبه المحبوب . وفي هذه الحالة يبعد عن تصور الشخص المادى وخياله كل ما تصبو اليه نفوس المتألمين من معنويات .

ولقد وجدت هذه الصورة الإنسانية وهذا النزوع النفسى المادى فى مختلف العصور . فكانت فى حضارة اليونانيين والرومانيين وفلسفاتهم حين كان ثم دعاة لاقتناص الذات المادية المواتية . وكانت فى عصور الحضارة الإسلامية حين استمتر المستهترون من الشعراء بالآداب والفضائل . وكانت كذلك فى حضارة الغربيين قديما وحديثا حين نادى منهم من نادى بمبادئ الكفاح والغلبة ، وتموين قيم الفضائل . وعلى الجملة كانت بين من نطأ عليهم اسم المستهترين والإباحيين . وفى هذا الضرب من ضروب المادية خصومة صريحة للديانات جميعا إذ لا تطبق المادية قيود الدين ولا تستسيغ تكاليفه فى الأصول والفروع . وما قد يقال فى ذلك عن عداوة المادية للدين يصح أن يقال فى عداوتها للأخلاق ، لأنه إذا كان رأس الحكمة على ما يقوله الأخلاقيون الدينيون مخافة الله فهيات ما بين المادية وبين هذا الخوف من الله . وإذا كانت الأخلاق عاقلة بحياة الجماعات فهيات ما بينها وبين من يؤثرون انفسهم وأنانيتهم على ما يطلب للجماعات والشعوب .

وفى هذه الحالة التى تظهر فيها أشباح المادية والدينية يتها ميدان متسع لحرب أزلية وتدافع فيه سجال بينهما (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ...)

ويبدولنا أنه لا محيص عند طفيان المادية لأهل الأديان - وهم بطبيعتهم من أهل المثل العليا - أن يتكاتفوا لمقاومة هذه التيارات الإباحية التى أصبحت شديدة الجريان والانتشار فى هذا العصر ، وزاد بذلك بطشها الفتاك بآداب الإنسانية ومعنوياتها .

أسباب انتشار المادية :

وقد ترد قوة التيارات المادية فى هذا العصر إلى عدة عوامل منها : ضعف السيطرة التى كانت للديانات على نفوس الناس ، وذلك لضعف شخصيات المترعمين الدينين ، وفساد أساليبهم فى التوجيهات الروحية وعجز وسائلهم فى أداء رسالتهم . ومنها : تقدم العلم ووصوله بطرائقه الفعالة إلى الأحداق التى ينشدها حين كشف الغطاء عن كثير من أسرار الوجود ، واستخدام هذا الكشف لمصالح الإنسان ورفاهيته المحسوسة . ومنها : تدانى بقاع الأرض بمختلف وسائل النقل والاستعمار الحربى والتجارى واستغلال الأموال بحيث تسالت الأساليب المادية من بعض الشعوب لبعض آخر من كان يدين بغير المادية ويقرب فى عيشه من الفطرة السليمة الخيرة . ومنها : ضعف تأثير المعنويات فى حياة مستغرقة بالحركة ومحاطة بشتى وسائل الكفاح والتراحم مما يشغل الناس عن الاطعشان إلى التفكير والأمل فى المعانى السامية .

وفى الحق أن ما يبدو لأقل وحلة أنه تقدم عظيم للإنسانية حين توافرت لها أساليب التعمير والنقل الآلى والفنون المثيرة للشهوات ، ليس يدل على التقدم إلا من ناحية واحدة :

تلك ناحية الوجود المادى فحسب . أما من ناحية إنسانية الإنسان ونزوعه إلى الخير والإيمان والسلام ، وعلى الجملة من ناحية اعتداده بالتسلح المعنوى فقد يبدو أن الإنسانية لم تتقدم فيها تنمدا يتناسب مع تقدمها المادى ، بل ربما يلوح أن الناس تأخروا إذا قيس متازعهم في هذا العصر بالعصور التى نشأت فيها المبادئ الكبرى وقامت فيها الدعوات الدينية البريئة الطاهرة . وإن مجرد التصور لهذه الحالة من تقدير التأخر المعنوى قد أزعج الكثيرين من المفكرين وأهل الوجدان من نيف وربع قرن ، أى في فترة الزمن الذى يشمل مبادئ الحرب الكبرى وامتداداتها في الحرب الحالية ، فشحروا بحاجة ماسة إلى وضع أساليب أخرى في الحياة لتقيهم شر ما هم فيه من الضجر والتلق النفسى وما تتعرض له الإنسانية من الشدائد ولم يعدوا لذلك أفضل من إنعاش ما ضعف من العوامل الروحية والدينية في نفوس الناس ونشر فضائلها في الشعوب نشرا صادقا يتحقق في الأعمال لا في النظريات والأقوال .

ولم تكن الدعوة إلى عبادة الأمم والرغبة في توجيه الثقافات توجيهها ينسجم مع مبادئ العدالة والسلام إلا إرهابا لحياة جديدة خرة أسلم من هذه الحياة نرجو أن تزدهر . وللبدينيين بطبيعة عقائدهم عمل كبير في نشر المبادئ التى تحقق هذه الحياة المنشودة إذا هم عملوا بجد وصدق وتعاون صحيح .

أخطاء أهل الأديان :

وإنا لا نبرئ الدينين من تفريط مكن لخصوم الأديان والمستهترين بمبادئها ألا يقبلوا عليها فلما أضعف في الزمن الأخير من هيمنة رجال الدين على النفوس أنهم لم ينعشوا الفضائل الدينية في حياتهم الخاصة حين ينبغي أن تكون هذه الفضائل حية ماثلة في مساعدهم وأعمالهم . فليس من الحق أن يتنادى رجل الدين بالقناعة وهو جاد في أساليب الطمع . وليس من الحق أن يتنادى بالتسوق والصراحة وهو يلوذ بالكذب والتفاق . وليس من الحق أن يجهر بالتقوى وهو غير برى ، من الإثم ، ولا بالتسامح والسلام وفي نفسه الاستقام والعدوان . وكثيرا أسفاه من يخرط في زمرة الدعاة الدينين الروحانيين دون أن يحققوا في انفسهم مطالب الدين العليا كما ينبغي أن يتحقق ، ومن ثم قلت الثقة بكثيرين من رجال الدين ، حتى تزعمت الثقة بالدين نفسه .

ومن أخطاء الدينين كذلك أنهم جعلوا من التفاصيل الفرعية للديانات مشاركات للخلاف والفتن فكانت شيع وكانت مذاهب ونحل مما كوتن الحزازات وضغائن النفوس . فإذا كان هناك من التفاصيل ما يجوز أن يفرق وجهات النظر وفقا لتعدد الأمورجة واختلاف العقول والأذواق ، أفلا يكون في الأصول الأولى مدعاة للتجمع والتعاون لما فيه الخير الشامل العميم . لقد يكون من الحكمة الأزلية بأن تختلف العقول في الجزئيات لتظل أداة التفكير مشحونة متوثبة لا تكمل ولا تصدأ . ولكنه ليس من الضروري أن يكون مثل هذا

الاختلاف مدعاة للخصومة والقطيعة . ولماذا لا يتردد في نفوس أهل الديانات جميعا مثل قول الصوفي ابن العربي :

لقد صار قلبي قابلا لكل صورة
و بيت لأوثان وكعبة طائف
ففرعى لغزلات ودير لرهبان
وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت
ركائبه فالحب ديني وإيماني

وما دمتا في صدد الإشارة إلى ما منحصيه من اخطاء الدينين فلا يسعنا إلا دعوتهم عن سبيل الأصول الأولى للديانات ليسمروا المحبة بين الناس ، وليستفيدوا لذلك من هالة الهداية الدينية التي مازالت لهم ولازال لها سلطانها وأثرها في النفوس . وربما ترتب على اتحاد رجال الدين أن تحمل مشيئة الله على الأرض لتكون بين الناس المحبة وليحل بينهم السلام ، فنفسج النظم السياسية المتضاربة ، ويتوجه الأفراد في أداء واجباتهم لخدمة الشعوب ، وتجتمع الشعوب لخدمة الانسانية جميعا .

واجب الدولة :

وكما أن على الدينين والمقدرين لقيمة الدين في الحياة الاجتماعية والإنسانية واجبا في تيسير نفوذه وتوجيهاته الروحية ، وكذلك يلوح لى أن على الدولة واجبا كبيرا في إعلاء كلمة الدين .

لقد أذى التنازع بين سلطان الدين وسلطان الحياة المدنية والمادية في بعض الأمم إلى إقصاء الدول والحكومات عن اتخاذ الدين لها شعارا . واعتمد المتشيعون لذلك على أن أبناء الأمة قد يرتبطون بشتى الروابط من آمال وآلام ومصالح مشتركة ذات وجود واقع دون أن يشتركوا في العقائد التي لها ميادينها في عالم النفس الباطنة وصميم الوجدان . ولذلك ترجح لديهم ألا يكون للدولة دين ترعاه ، وليرع كل فرد من افراد الأمة ما هو مكنون في ضميره . وقد يعترض على هذا الرأي بأن الدين — وإن كان منبته الأول في العقيدة الخافية — فان الإيمان به له أثره الواضح في الحياة الاجتماعية الظاهرة حين تصطبغ المعاملات والأعمال بما تلونها به العقائد . فالأخلاق الجارية ، وآداب السلوك ، كل ذلك يتأثر تأثرا كبيرا بما يتصل بدواخل النفس ، وقد يتم الظاهر في مجارى الحياة عن الكثير الخفى في الوجدان . وفي الإسلام حض على أن يكون نشاط المرء ومسعاها منسجما مع عقيدته ودينه حتى جاء في الأثر "الدين المعاملة" .

وأغلب الظن أن كل أمة فيها أكثرية من أهلها يدينون بعقيدة واحدة . وليس من خير على الدولة . تدين بدين الأكثرية وترعاه ، وأن تجعل من واجبا رعاية دين الأقليات ، لأن دين الأقلية مهما اختلف عن دين المجموع الأكثر فانهما يلتقيان في الأصول التي تستوجب الرعاية والتقدير .

وإذا كانت بعض الأمم المتمدنة قد أخذت بمبدأ اللادينية في الدولة ، فإن محرقة قد ظلت متمسكة بأن يكون دين دولتها الرسمي الإسلام . وهو يولى عقائد الأقليات حسن الرعاية بحكم تعاليمه السامية . ففى المأثور عن الرسول العربى قوله : " من آذى ذميا فأنا خصمه يوم القيامة " . وزيادة على ذلك فان الاسلام يعترف بالديانات السماوية المنزل ، ويقدر ما جاء فى التوراة والانجيل من الهدى ، ويحضى على اتباع ما فيها من إرشاد . وحسبنا دليلا أن نذكر تلك الآيات : (قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَّا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ) وكذلك قوله تعالى : (قُلْ يَتَّأَهَّلُ الْكُتُبِ لَكُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُتَّقُوا آلَ تَوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ) ، وقوله : (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكُتُبِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) ، وفى كل هذه الآيات وكثير غيرها دليل على أن الاسلام فيه من مبادئ المحبة والتواد والمجاملة لأهل الأديان جميعها ما ينفى معه الشك فى تقديره لمسألة الناس والتعاون معهم فى الخير والمعروف .

أسباب الخلافات :

على اننى وإن كنت اتمت بما يصرح أن يكون مصدرا لتلاقى الدينين وتأخيرهم فى المبادئ السامية لا أستطيع أن أغفل ما حدث وما يجوز أن يحدث من أسباب الانقسام والاختلاف بين اهل العقائد المختلفة . وفى زعمى أن منشأ الخلاف لا يمكن أن يكون مرده الأكلر أصول الديانات أو فروعها ، وإنما قد يتصل مرده على الأرجح باستعدادات من وضعوا موضع الزعامة والقيادة للدينين ، فالكثيرون منهم كما أشرت إلى ذلك لم يتخلقوا بالأخلاق الكريمة التى يستطيعون أن يدفعوا بها أسباب الأحقاد والخصومات . ولعل أول الواجبات على المترعمين فى أمور الدين لخدمة الحركة الدينية نفسها وخدمة الإنسانية أن يروضوا أنفسهم على الأعمال التى تنسجم مع سمو العقيدة ، فاذا تحقق لهم أن رفعوا مستوى أنفسهم كان من اليسير عليهم أن ينزلوا إلى الميادين الاجتماعية حشدهم الروحى أفرادا وجماعات لتقبل رسالتهم فى مختلف الناس ولتثمر الدعوة الى التعارف لا الى التناكر ، وتعلو راية التوفيق على راية التفريق . ومنذ القديم فى نشأة الجماعات البشرية زعت النفوس إلى تقديس أمور ورفعها عن مستوى الحقائق والأشياء المألوفة ، بل أصبحت نفوس الناس التى مستها الطراف التقدم والمدنية المصفاة لا تقبل على أمر من الأمور حتى يكون مجلا بهالة قدسية علوية ، وليس من مستودع أوفى من الديانات لنستمه منه طابع القدسية وحرارة الإيمان . ويبدو لى ان الإنسان مهما طال حياته لا غنى له عن فترة من الزمن تظلمن فيها نفسه بالإيمان ، وليس

تترتب إلى لإيمان ويدنيه من الغلوب أكثر مما يرحى في عالم الغيب وما يبدو فوق العقول
لا تدركه العقول .

ففي الديانات إذن ما يثير في النفس عوامل الإيمان ، ولا تستقيم الحياة الاجتماعية إلا
بدواعي الإيمان . فتيارات الحياة الاجتماعية الملاحقة المتضاربة فلما توصل المرتاب المردد ،
وقلما تدنى الأنبي المتشائم من بر السلامة ، لكنها تحمل المطمئن على أمواجها والمتفائل المستبشر
المتوكل على الله الراضى بقضائه إلى شاطئ التوفيق . ولقد أصاب "ديكارت" أبو الفيلسفة
الحديثة حين لم يجعل في نفسه للشك سبيلا حيال أصول الدين ومبادئ الأخلاق ، في حين
كانت طريقتة التشكك المعن في مسائل الكونيات .

ولقد أهرى الدين الإسلامى قداسته إلى أكثر من جزئيات الحياة العملية وأوصل فيها بذلك
قبسا من حرارة الإيمان ، وتلك مزايا ذكرها له «أوجست كومت» كبير فلاسفة الواقعيين .

وفي الحق أن الديانات حين تنتقى في الإيمان بالأصول العليا ، وفي الشخصوس إلى العظمة
اللانهاية ، وحين تتجه أعمال الإنسان إلى هذه الالظمة فإن هذه الأعمال تكسب ألوان التماطم
والنسامى ، ومن ثم يصبح الدين والإيمان عملا ويصيح العمل إيمانا ودينا .

ولما في الموقف الذى نجهر فيه بأمانينا في تعاضد الأديان السايوة لمكافحة شرور المادية
وتغليب النزعات الروحية والمعنوية ، لعلنا تقدم الاستبشار ونرجح التفاؤل فالزمن موات ونفوس
الناس متهيئة لتلك الدعوة .

وإنى في خاتمة القول لا أتجاوز ساحة التفاؤل لو رمزت لما في نفسى بما يذكر في أساطير
الأولين من نجو نحس وعشرين قرنا في فلسفة الفرس ودياناتهم حين تمثل صورة من صور
الكفاح بين المادية والدينية .

فلقد قدر هؤلاء الأقدمون أن الإله أو رمزه مصدر الخير والنور والروحانية كان هو
الأصل القديم الأزلى الأول ، لكنه بعد حين ارتاب في ثقته بنفسه الخيرة فتولد عن ارتيابه
«أهرمن» رب الشر والظلام والمادية حين كان خلق الدنيا فلازم إله الشر خلقها ،
وأحاط بها كما يحيط سواد الظلمة بلائ الضياء . ووقف هذا الإله الأخير موقف المضاد
المكافح لمعاني الخير التي تذبذبت عن «أورمزد» كما تقاوم الظلمة اشعة النور .

ثم تمثل هؤلاء الأقدمون حياة الكون المحدود تمر في أدوار أربعة ، ففي الدور الأول كان
حكم الخير والنور ، وفي الدور الثانى تنارع النور مع الظلام والخير مع الشر بأسلحة متعادلة
وكانت الحرب بينهما سجالا . أما الدور الثالث فكانت الغلبة لإله الشر «أهرمن» حين
تكاثرت أباليسه وشياطنه وقواه الجهنمية . لكن في الدور الرابع الأخير قد تغلب إله النور ،
وترجح جانب الخير على الشر ، وبعث الموقى من القبور مطهرين من خطاياهم ، وتقدم
«أهرمن» خاضعا تائيبا لأورمزد وانطوى الشر منهضوما في جوف الخير ، ودرجت
الظلمة في مدراج النور .

ولعل العالم بدعوته الروحية المقبلة يغلب الهدى على الضلال ، وبحقق الغلبة لأورمز
على أهرمن ، ويعلو على الظلمة الضياء .